آبعاد الانقلاب الاردني ضد صدام حسين

هل الهدف الضغط من اجل تغيير نهج النظام ام اسقاطه ؟

في صبيحة 8 اب 1995 وصل الفريق اول حسين كامل وشقيقه العقيد صدام مع زوجيتهما رغد ورنا ابنتي الرئيس صدام حسين الى عمان هربا من بغداد وطلبا اللجوء.

رغم اهمية الحدث وفداحته على صدام حسين ونظامه، الا ان الاهمية الاكبر تكمن في دور وموقف الملك حسين منه.

سبق للملك ان لمح اكثر من مرة خلال السنوات الماضية عن اختلافه واحيانا انتقاده لصدام حسين، فهو الذي قال، اشارة الى صدام: "اذا كنت عقبة امام رفاه شعبي فاني افضل ان اتنحى".

شهدت علاقة الاردن- طوال 43 سنة من حكم الملك حسين- بدول الجوار انعطافات عدة بلغت حد الاستدارة الكاملة، استطاع الملك ادارتها بنجاح. فقد استطاع وريث الاتحاد الهاشمي-اتحاد العراق والاردن عام 1958- من استيعاب ثورة 14 تموز في العراق ليطور علاقاته بحكم البعث العراقي الى حد التحالف الاستراتيجي مع صدام حسين في حربه ضد ايران طوال 8 سنوات.

ولكن عندما اصبح صدام حسين عبئا سياسيا على الاردن بعد غزوه الكويت، اخذت خطوات الملك حسين تنأى بهدؤ عن بغداد، قال الملك حسين (في لقائه الصحفي مع يديعوت احرونوت في 14 اب 1995): "منذ حرب الخليج لم تكن لي اية اتصالات مباشرة مع صدام حسين، سواء هاتفية او بأية صورة اخرى ليس معه او مع الاخرين".

وبقدر ابتعاد الملك حسين عن بغداد ازداد قربا من اسرائيل. وبعقد اتفاق السلام (الزواج) الاسرائيلي-الاردني، باتت علاقة الملك حسين بصدام حسين (الذي اطلق 39 صاروخا على تل ابيب) محكوما عليها بالطلاق. كان طلاقا مؤجلا بانتظار ان يلعب القدر دوره باسقاط صدام عبر انقلاب او اغتيال، وعندما لم يتحقق ذلك تدخلت ارادة الملك من خلال توظيف حسين كامل تطبيقا لد "الدبلوماسية الوقائية" على حد وصف عبد الكريم الكباريتي وزير الخارجية الاردني لسياسة الاردن.

ما كان لفرار حسين كامل ان يتم لولا تمهيد من الملك حسين، الامر الذي اكده ضمنا بقوله لصحيفة يديعوت احرونوت بتاريخ 14 اب، "التقيت معه قبل ثلاثة او اربعة اسابيع عندما كان في طريقه الى روسيا فقد توقف هنا وحمل لي رسالة ادركت منها مدى صعوبة الاوضاع داخل العراق ومدى حاجتهم الى يد تساعدهم".

ويصعب، مرة اخرى، تصور مخاطرة الملك بمثل هذا الانقلاب ضد صدام حسين دون تنسيق مسبق مع واشنطن. فقد اعلن الرئيس الامريكي كلينتون بسرعة وحسم تأييده للملك حسين على اتخاذه هذه الخطوة "الشجاعة"، واعلن التزام واشنطن بالدفاع عن الاردن من اي تهديد عراقي قبل ان تحرك بغداد جندي واحد.

اما موشيه زاك، فكتب في صحيفة معاريف الاسرائيلية (21/8/1995) مؤكدا بان اسحق رابين كان اول رئيس حكومة يخبره الملك حسين باتصال هاتفي بفرار حسين كامل.

ظاهرة حسين كامل

ان حسين كامل هو افراز طبيعي لنهج صدام حسين الذي بدافع هواجسه الامنية اعتمد الحلقة الأضيق من الاقرباء والاصهار، معطلا دور الحزب والقيادات العسكرية التقليدية استنادا الى قاعدة اولوية اهل الثقة على اهل الخبرة، دع عنك اسقاطه لدور الشعب وحقه في المشاركة.

ان السؤال الذي طرحه صدام حسين على نفسه: "وقد يقول قائل منكم، ولكن لماذا لم تحسنوا الاختيار؟" الذي جاء في رسالته (الى الشعب العراقي حول خيانة حسين كامل) بتاريخ 11 اب، يعكس حالة الاحباط التي يعيشها صدام حسين، خاصة وانه لم يجد جواب سوى الايغال في قصص الانبياء والاساطير حول الخيانة.

"عميل للسي. آي. ايه" هذا ماقاله طارق عزيز في وصف حسين كامل، اما الملك حسين فوصفه بـ "شاب عربي عراقي اصيل . . "، وانه اختار "الانسلاخ عن الاهل هناك، وعن الموقع والجاه والرفاه والراحة لقاء رحمة اكبر واعظم، هي رحمة راحة الضمير نحو الشعب العراقي وجيش العراق".

قد لايكون حسين كامل عميلاً لد "سي. آي. ايه"، ولكنه حتما ليس ذلك الرجل الذي استيقظ ضميره فجأة!!.

ان حسين كامل ضحية صراع طموح "الصهر" ضد طموح "الابن"، من اجل ولاية "العهد". انه صراع كان الشعب العراقي يدفع ثمنه دماً، في وقت كان الصهر والابن يسلخانه من اخر ما تبقى له من قوت.

وفجأة ينتقل "الصهر" حسين كامل بأمواله الى عمان ليواصل صراعه مع "الابن" والاب ولكن هذه المرة من موقع "المعارض الديمقراطي الغيور" !!

ما كان لهذه الملهاة-المأساة او لهذا الممثل ان يستأثر باهتمام جدي لولا الملك حسين. فالانتباه مشدود للملك-المخرج، وليس للممثل- الهارب. ان حسين كامل هو صنيعة صدام حسين، ولايملك قاعدة شعبية او حزبية مستقلة، وبخروجه عن العائلة-التي جعلت من العريف فريق- خسر ما اعطته العائلة من مكانة.

وقول الملك حسين بان حسين كامل كان وراء "أزالة الغشاوة عن العيون"، قد يندرج في باب التواضع الذي عرف به الملك ولكنه حتما استهانة بذكاء وكفاءة مسؤولي الدولة الاردنية واجهزتها الامنية ذات الاحتكاك المباشر بالعراقيين من معارضين ومؤيدين.

اما قول الملك حسين للصحيفة الاسرائيلية: "لايمكن ان نتحدث هنا في الاردن عن تطبيق حقوق الانسان ونغض النظر عما يجري في العراق من معاناة"، فهو استهانة بذكاء العراقيين خاصة المعارضين منهم.

حقيقة الامر: ان الملك حسين نجح في توظيف حسين كامل لتغيير مسار القطار الاردني من اتجاه بغداد الى واشنطن مرورا بالخليج.

ابعاد الخطاب الملكي

- جاء الخطاب الملكي الاردني موجها بالدرجة الاولى للشارع الاردني بهدف تحضيره للتحول الجديد، خاصة وان هذا الشارع هو الذي حمل سيارة الملك حسين وليس الملك فقط على اكتافه احتفالا به لمواقفه خلال حرب الخليج الثانية. وان غالبية القيادات الشعبية الاردنية قد لاتعارض لجوء حسين كامل لدوافع انسانية ولكنها لاتجد مايبرر تحويل الاردن الى ساحة عمل لاسقاط صدام حسين، ونتوجس من وراء تبني الملك حسين لحسين كامل دورا امريكيا وحتى اسرائيليا لن يعود على الاردن بالخير، خاصة وان معظم هذه القيادات لاتشعر بانها مطالبة بالاعتذار عن موقفها من حرب الخليج الثانية.

- وان الملك حسين، الذي نجح في اقناع الشارع الاردني بقبول السلام مع اسرائيل، لن يجد صعوبة في كسب سكوته ان لم يكن رضاه بشأن التحويل الاردني الجديد، شرط ان يلمس الاردني وبالذات الطبقة التجارية محاسن التحول "المالية" بما يعوضها عن اسواق العراق ونفطه خاصة وان السلام مع اسرائيل لم يثمر بالاموال الموعودة. اضافة الى ان سجل نظام بغداد الموغل في الاضطهاد والقمع يوفر بضاعة صالحة للاستخدام الاعلامي.

- رغم ان خطاب الملك حسين اكد بانه سوف لن يغلق الحدود مع العراق، الا ان قطع العلاقات الاقتصادية وبالذات وقف استيراد النفط العراقي باتت ورقة ضاغطة بيد الاردن تجاه العراق، كما هي ورقة للمقايضة مع امريكا ودول الخليج. ففي 2 اب 1995 اخبر روبرت بليترو، مساعد وزير الخارجية الامريكية، لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب، بان دول الخليج غير مستعدة لتزويد الاردن بالنفط لعدم استعدادها مجاراة العراق باسعاره المنخفضة. (يصدر العراق 75 الف برميل من النفط الخام ومنتجاته يوميا للاردن، منها 25 الف برميل بسعر السوق بالنسبة للمشتقات النفطية، 25 الف برميل بسعر خاص لايزيد عن 16 دولار للبرميل، اما الـ 25 برميل الاخيرة فيزود الاردن بها مجانا، كما ان عوائد النفط التي تقدر بين 300-400 مليون سنويا تصرف لتغطية مشتريات العراق

من السوق الاردني)، ولكن الامر اختلف بعد خطاب الملك، فزيارات بليترو المتكررة لعمان والكويت اقنعت الاخيرة بجدوى دعم الاردن ماليا، خاصة اذا كان الامر سينتهي بسقوط صدام حسين.

- انهاء عزلة عمان نتيجة موقفها في حرب الخليج واستعادة مكانتها كمركز استقطاب فاعل في التغييرات الاقليمية، وذلك من خلال بروز محور واشنطن،-تل ابيب- عمان، الذي تجلى في زيارات المسؤولين الامريكان ووزير الخارجية الاسرائيلي بيريز الى الاردن مؤخرا.

- ان العراق الضعيف والمعتمد على الاردن اقتصاديا وماليا عاجز عن تهديد الاردن، والولايات المتحدة تتمنى "حماقة" عراقية لتمطر بغداد بصواريخ توما هوك، كما صرح وليم بيري وزير الدفاع الامريكي. وان نهج الاعلام العراقي "المؤدب للغاية" تجاه عمان يعكس اضافة الى محاولة احتواء الازمة حالة الضعف العراقية هذه.

هل التحول الاردني من اجل تغيير نهج النظام ام اسقاطه ؟

خطاب الملك حسين جعل كافة معادلات الشرق الاوسط السياسية مرشحة للتغيير، كما اصبح للملك دورا حاسما في تقرير مستقبل العراق مما يثير التساءل التالي: بأي اتجاه سيوظف الملك هذا الدور؟ الاكتفاء بانتزاع تنازلات من صدام حسين على الصعيد الداخلي (انفراج سياسي) والاقليمي (التسوية السلمية مع اسرائيل، المفقودين الكويتيين) والدولي (استجابة كاملة لقرارات مجلس الامن بما ينهي العراق عسكريا وليصبح مجرد مشروع اقتصادي). ان هذا الخيار يثير مسألة "شروط استمرار النظام العراقي" في الحكم، وهي شروط امريكية واسرائلية بالدرجة الاولى. هل واشنطن وتل ابيب تفضل هذا الخيار تحاشيا من مطب التغيير غير المحسوب النتائج ايرانيا وداخليا؟. كي يتولى الاردن ادارة عملية التفاوض بشأن "شروط استمرار النظام" مع صدام، كان لابد من ان ينأى الملك حسين بنفسه عن بغداد دون القطيعة. فخطاب الملك لم يأت على ذكر اسم صدام، كما ان الاخير تحاشى انتقاد الملك حسين.

وقد يكون تعاون بغداد "الكامل" مع ايكوس بحجة مسؤولية حسين كامل عن التقصير السابق هي بداية مسيرة "انتزاع التنازلات".

ام ان خيار الملك حسين هو الاطاحة بصدام حسين؟

- قال الملك حسين في المقابلة مع الصحيفة الاسرائيلية (14/8) "هذا هو الوقت المناسب للتغيير" في العراق. واكدت مصادر مقربة للقصر الملكي الاردني (سلامة نعمات، الحياة 28 اب 1995) ان الاردن يسعى الى التنسيق مع السعودية والكويت ومصر والولايات المتحدة للتعجيل في اطاحة النظام العراقي. وان الاردن "سيلعب

دوراً اساسيا" في المخطط الذي يتضمن "تحركا جماعيا لضمان المحافظة على وحدة العراق واستقراره بعد سقوط النظام الحالي" بما يحول دون "قيام اي قوى اقليمية بمحاولة ملء الفراغ الذي قد ينشأ عن انهيار النظام في بغداد". ولانه "لايوجد مجال للثقة في النظام الحالي او في قدرته على التغيير المطلوب الذي يمكن ان يحول دون تكريس انقسام العراق وتمزيقه وفتح المجال لتدخلات ايرانية وتركية"، يجب الاطاحة بالنظام.

يفترض هذا المنطق ان بقاء صدام حسين بات مستحيلا بسبب عوامل ذاتية (وبالذات الصراع العائلي)، فبدلا من ان يتم سقوطه لصالح ايران او تركيا علينا استباق الاخرين، اي ان تسقط التفاحة العراقية باحضان انظمة عربية (حليفة لامريكا) بدلا من ايران او تركيا. وهذا عكس ماكانت تقوله عمان سابقا بضرورة الابقاء على صدام لانه يمثل صمام الامان بوجه تدخل ايران وتركيا وبالتالي تقسيم العراق.

ان اهم سلاح بيد عمان هو خنق العراق من خلال غلق الحدود وقطع استيراد النفط. اي اعتماد سياسة الاختناق بدلا عن الاحتواء.

- كما ان تصدع قواعد النظام الاساسية "السنية" و "العشائرية"، واخيرا "العائلية" تعطي العرش الهاشمي فرصة لاستقطاب رموز هذه القواعد لمصلحة نظام جديد يحافظ على مصالحها ومكانتها.

- اضافة الى اهمية الجوار الجغرافي والوجود البشري العراقي في الاردن (اكثر من 30 الف مقيم عراقي) في اي عملية اسقاط صدام حسين، بما يجعل عمان، وليس دمشق او الرياض، الساحة الاساسية للعمل المعارض لنظام صدام حسين خاصة بعد ان فشلت كردستان العراق من القيام بهذا الدور.

- رغم تأكيد الملك حسين بانه "لا مطمح لي ولامطمع" في العراق، الا انه اشارته الى "استشهاد رفيق صباي فيصل الثاني. . ،فقد كنت نائبه ووريثه في رئاسة الاتحاد العربي الذي ضم الدولتين"، فيها تكريس لمرجعة الملك حسين في الشأن العراقي، خاصة بقوله : "تمنينا (على الشعب العراقي) ان لاينفرط عقده الذي جمعه الهاشميون سنة وشيعة، عربا واكرادا".

واضح من هذا التحليل ان الاردن، شأنه شأن الولايات المتحدة ومعظم دول الجوار يعمل على استخدام العراق وليس مساعدة شعبه. فاليقظة الاردنية المتأخرة تقف وراءها مصالح في منتهى البرغماتية للعرش الهاشمي وسيكون ثمن اسقاط النظام الدكتاتوري في العراق مزيد من التجويع والمعاناة للشعب العراقي، لينتهي الامر باستبدال صدام بنسخة مشوهة تدعي حسين كامل.

كتب مصطفى امين معلقا على لجوء حسين كامل: لانريد ان نستبدل بطاغية طاغية اخر. . وانما نفضل ان يجيء حكم ديمقراطي الى العراق بعد سنة ونرفض ان يجيء حكم دكتاتوري غدا".

عقبات المسار الاردني الجديد

- ان نجاح الاردن كـ "رأس حربة" في الاطاحة بصدام حسين، يتطلب - اضافة الى الولايات المتحدة واسرائيل- تعاون دول الخليج وبالذات السعودية والكويت، اضافة الى تأييد مصر او على الاقل سكوتها. فبدون المال السعودي والنفط الكويتي يصعب على الملك حسين المجازفة في لعبة التآمر. ان استجابة الكويت لاتعني استعداد السعودية ان ترى عودة النفوذ الهاشمي للعراق، وليس من مصلحة السعودية اي تغيير في العراق يؤدي الى عودة العراق للسوق النفطي.

- ان سوريا وايران مغيبتان من المعادلة الاردنية الجديدة، بل ان اي تغيير لصالح محور عمان-تل ابيب-واشنطن، يثير مخاوف كلا البلدين، وسيدفعهما لاحباط ذلك المسعى. ولكلا البلدين ذخيرة حية قادرة على تعطيل الخيار الاردني في العراق.

- كما ان مصر ترى في ريادة الدور الاردني تجاوزا لمكانة مصر وتهميشا لدورها في الشرق الاوسط.

- رغم ان بغداد تعيش اجواء ماقبل سقوط شاه ايران، ولكن يبقى هناك فارقا كبيرا في عدم وجود بديل كالخميني جاهز لاستلام الحكم. فاذا استطاعت بغداد شراء مزيد من الوقت ستتمكن من لملمة صفوفها لمواجهة احتمالات التمرد. خاصة وان البديل المطروح (حسين كامل) بدلا من ان يكون اداة وحدة للمعارضة العراقية، خلق مزيد من التصدع في صفوف المعارضة العراقية. فهناك من يرى فيه استمرارا لدكتاتورية النظام الحالي، ومنهم من يرى فيه دكانا سياسيا جديدا منافسا لبضاعتهم، وهناك قلة ستلتف حوله املا في لعب دور سياسي او مكسب مالي حرمت منه سابقا.

ان وعورة وخطورة نهج الاطاحة بنظام صدام حسين قد يدفع القيادة الاردنية، ذات الحسابات الدقيقة، بالاكتفاء بما حققته من نجاح، تاركة الفرص مفتوحة امامها بانتظار ما يمكن ان تمخض عنه الاحداث، عراقيا واقليميا.

هل هناك فرصة اخيرة لخلاص النظام؟

ان تراكم اخطأ نهج النظام الحاكم هي التي اوصلت بغداد الى هذا الطريق المسدود. وربما تراهن بعض الاطراف العربية والاقليمية على ان يؤدي استمرار نهج النظام هذا في اسقاطه ذاتيا.

ان تركيز السلطة في ايدي الابناء بعد هرب الاصهار يعني عدم استفادة النظام من تجربة هروب حسين كامل.

فالسؤال: هل في قدرة رأس النظام حسم هذه الاشكالية لصالح المراجعة والانفتاح بما يعيد لمؤسسات الحزب والدولة مكانتها، وذلك كخطوة نحو مشاركة شعبية اوسع.

البعض يشك في مثل هذه الاحتمال الذي يحتاج تحقيقه ان يعيد صدام اكتشاف نفسه مجددا.

(الملف العراقي، العدد 45، آيلول 1995)

❋ ❋ ❋